ثقافة الضيافة والكرم وبعض تقاليدها بمجتمعات إفريقيا

د. آدم بمبا

أكاديمية الدراسات الإسلامية – جامعة مالايا – ماليزيا

الضيافة ثقافة مؤصلة في المجتمع الإفريقي:

إذا كان الكرم وحسن الضيافة قيمةً إنسانية مشتركة بين جميع الثقافات؛ فإنه في المنظور الإفريقي يتميَّز بالسَّعة الأفقية، وبالعمق العمودي، فهو موجودٌ في كل مجموعةٍ إفريقية، وفي الوقت نفسه عميقُ الجذور في ثقافة كل مجموعةٍ إثنية.

وفـــوق ذلك؛ تتميَّـــز الضيافة بأنها ليســـت مجرَّد تصرُّف وخُلق إنســـاني في الكـــرم، وإنما هي كما يؤكده الباحثان (Mnyaka - Motlhabi 2005) مســـألة وجـــود؛ باعتبار الاهتمام برفاهية الآخرين قيمةً وجودية في الفلســـفة الإفريقية التي تُعـــرف بـ«أُبونْتو»، أي أن العناية بالجيران والأقـــارب والضيوف تقوم على مبادئ أخلاقية صارمة مُلزمة لكمال إنسانية الفرد ومروءته.

إن مصطلـــح أُبونْتـــو Ubuntu مركَّبٌ من جزأَين: ubun-ntu، يعني الجزء الأول: وجود أو كينونة، والآخر: إنسان، فالمصطلح- إذاً- يرمز للوجود الإنساني، ويُترجم إلى اللغـــات الأوروبية ترجمةً مقاربة بـ Humanism. وهو مصطلحٌ موجودٌ في اللغات البانتُوية بإفريقيا جنوب الصحراء. يُعرِّفه الباحـــث برودريك Broodryk بأنه: «رؤية إفريقية متكاملة للعالَـــم تقوم على القِيَم الأصيلة في الإنسانية: من تعاوُن، وتشـــارُك، وتعاطُف، وتحقيق مجتمع إنســـاني مثالي في جوٍّ من الأُخوَّة»[١]. أو بتعريف أكثر اختصاراً عند الباحث أنجا: «أن يُسخِّر الفرد حياته للآخرين»، وأن هذه الفلســـفة بمثابة «دين بالمجتمعات الإفريقية التقليدية»[٢].

بهذا؛ فإن أُبونْتو هي المحرك الضمني العميق الذي يُشكِّل رؤية العالَم لدى الأفارقة، ويوجِّه جميع تصرُّفاتهم وتوجهاتهـــم فـــي الســـلوك، وعلاقاتهم مـــع الآخرين، ولا تكتمل إنســـانية الإنســـان إلا في إطار التزام الفرد بمقتضيات فلسفة أُبونْتو ولوازمها.

من هذا المنطلق؛ فإن قيمة الكرم وحســـن الضيافة منبثقةٌ عن هذه الرؤية، ويدلُّ على هذه العلاقة الوشيجة بين قيمة الكرم وفلســـفة أُبونْتو أن الباحثين قد حدَّدوا ركائـــز رؤية العالَم عنـــد الأفارقة في ســـبعة هي: (أ) قداسة الحياة، (ب) والحِسُّ المجتمعي، (ج) وحِسُّ الوئام

تعتقد تلك المجتمعات ومثيلاتها: أن تقديم الضيافة على أحسن وجوهها إنما هو عنصرٌ ضروريٌّ لتحقيق إنسانية الإنسان ومروءته.

البشـــري، (د) والحِسُّ الديني الروحـــي، (هـ) والحِسُّ بقداســـة الكلمة (و) واحترام الســـلطة وكبار السن، (ز) العناية بالضيف[٣].

عليه؛ فإن الكرم وحســـن الضيافة، كما يتجلَّى في هـــذه المنظومة، مكوِّنٌ جوهريٌّ في بناء الفرد والمجتمع الإفريقي، أو هو كما يقول الباحث شِينيدو عنه بمجتمع إيبو جنوبيَّ نيجيريا ومثيلاته من المجتمعات الإفريقية: «أســـلوب حيـــاة إفريقيـــة» (A way of being an African)[٤].

والضيافة ليست طقوساً شكلية في الحفاوة بالغريب وتقديم المأكل والمشرب والمأوى له، وإنما هي محصِّلة لروح أخوية صادقة وعلاقات ســـلمية عميقة مُوَسَّعة في قبولِ الآخر[٥]، لا تتحـــدَّد بعلاقات القربى والدم، وإنما هي منفتحة على الإنســـان- كلّ الإنســـان، وعلى العالَم بأسْرِه، من بَشَر وغير بَشَر[٦].

---

(١) Leonard Tumainin. 2014. African Indigenous Ethics, Springer, 12.

(٢) Vuyisile, Msila. 2015. "Ubuntu: Shaping the Current Workplace with (African) Wisdom", Knowres Publishing, 1.

(٣) See: Emeka, Emeakaroha. 2002. African World and Ideology, (Seminar Paper), Univ. of Vienna, Austria. March 14th, 1-10, 2.

(٤) Chinedu, P. E. 2020. The Value of Human Dignity, Logos Verlag Berlin, p.58.

(٥) Akper, Godwin I. 2015. An ethos of Hospitality, Stellenbosch Theological Journal, vol. 1(2), pp.283-298.

(٦) Racheal Mafumbate. 2019. The Undiluted African Community, IKM, Vol., 9 (8),7-13.

أما ترجمة مفاهيم أُبونْتو والكرم وحسن الضيافة إلى أفعالٍ ماثلة؛ فإن شواهد تاريخية كثيرةً قد تكفلت بتسجيلٍ ذلك في أفعال الأفارقة أفراداً وجماعاتٍ، ويكفي هنا استعراضُ طائفةٍ منها.

من أجلى الشواهد على حسن الضيافة: هجرة الطائفة المسلمة الأولى المستضعَفة المضطهَدة بمكة إلى أرض الحبشة، وذلك بأمرٍ من النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه؛ مبرِّراً هذا الاختيار بما بأرض الحبشة من حسن ضيافة، وحفظٍ للذمم والحريات، وقد صدَّق ذلك نجاشيُّ الحبشة بتوفير الرعاية الكاملة لضيوفه، وكفِّ أيدي أهل مكة عنهم حين حاولوا استرجاعهم إلى مكة.

بعد ذلك؛ يروي لنا المؤرخون العرب كثيراً من المواقف في المجتمعات الإفريقية في حُسن ضيافتهم للوافدين عليهم، فالبكري (أبو عبيدة، ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)- مثلاً- قد سجَّل بعض ما كان يحظى به الضيوف التُّجارُ من حفاوةٍ واحترام وامتيازاتٍ بعاصمة إمبراطورية غانة، منها بناء الملك تُونْكامَنين الوثني مسجداً بالقرب من قصره ليُصلِّي فيه ضيوفه. كما سجَّل قصة دخول الإسلام الأول ببلاد مَلِلْ في غرب إفريقيا، وعزا ذلك لشيخٍ داعية نزل ضيفاً على ملك مَلِلْ، وصادف حضوره فترةَ جدبٍ وقحطٍ شديد، ونتج عن استسقاء الشيخ مطرٌ غزير، كان سبباً في إسلام الملك وأهل مملكته[١].

بالمثل؛ يذكر العمري (فضل الله، ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)؛ أن أهل دُنقُلة بالنُّوبة، على ما هم عليه من شظف العيش، هم «أصلَحُ من كثيرٍ ممَّن سواهم من السودان، وبها مسجد جامع تأوي إليه الغرباء، وتجيء رُسُل الملك إليهم تستدعيهم إليه، فإذا جاؤوا؛ أضافَهم ووَهَبَهم وأكرمهُم هو وأمراؤه»[٢].

أما ابن بطوطة، الذي زارَ مالي (٧٥٣هـ/١٣٥٢م)، فقد سجَّل لنا بعض المواقف من الضيافة الشعبية والرسمية له، غير أن سوء فَهْمه للثقافة المحلية؛ حَمَلَه على الاستخفاف ببعض طقوس الضيافة، فحين نزلت قافلتُه بمدينة إيوالَتَنْ- مثلاً- صَنع واليها مشروباً ودعا القافلة، وكان مشروباً ممزوجاً بعَسَل ولبن، وهو أفضلُ ما يُكرم به الضيف في مجتمع مانْدينْغ، قال ابن بطوطة: «فقلت لهم: ألهذا دعانا الأَسْوَدُ؟ قالوا: نعم، وهي الضيافة الكبيرة عندهم. فأيقنت حينئذٍ أن لا خير يُرتجى منهم»[٣].

وحديثاً؛ فإن حسن الضيافة كان من العناصر الثقافية الأولى التي أبهرت كثيراً من الرحالة الأوروبيين الأوائل الذين وفدوا على المجتمعات الإفريقية. مثلاً، على الرغم من الرؤية الاستعلائية واللهجة العنصرية في مذكرات الرحالة بارو Sir John Barrow (١٧٦٤-١٨٤٨)، فإننا نجد عنده إشادةً قوية بقيمة حسن الضيافة في المناطق التي زارها بالجنوب الإفريقي، يقول: «وعلى الرغم من فظاظة طباعهم، وتخلُّف عقولهم، فإنهم مُتَميِّزون بشدَّةٍ في أمرٍ واحد: إنه حُسن الضيافة تجاه الغرباء»[٤].

والأمر نفسه في شهادة الرحالة كامْبيل، الذي قضى حوالي ثلاثة عقودٍ بإفريقيا الوسطى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يقول: «إن حُسْن الضيافة من العادات المقدسة ببانتولاند، وهي عادةٌ موجودةٌ في كل مكان. سيبادر الشخص بإفريقيا بتوفير أفضل غُرَفه، وتقديم عَشائه للضيف، دون أن يشعر أنه يقوم بعملٍ مميَّز»[٥].

(١) البكري، عبد الله بن عبد العزيز. ١٩٩٢م، المسالك والممالك، ت: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيروت: دار الغرب، (٢/٨٧٥-٨٧٦).

(٢) العمري، شهاب الدين ابن فضل الله. ٢٠١٠م، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ت: كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، (٤/١٠٢).

(٣) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، رحلة ابن بطوطة، ت: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، بيروت: دار إحياء العلوم.

(٤) John Barrow. 1801. An Account of Travels into the Interior of Southern Africa, Vol. 1-2, T. Cadell, Jun. and W. Davies, 83.

(٥) Campbell, Duglas. 1922, 45, in: Gyekye,

أيضاً: من الرحالة الذين أشـادوا بثقافة الضيافة بمجتمـع غيكويو: فيشـر، وروتليـج[١] Routledge, Fisher. كما يذكر الرحالة الإنجليزي «ريتشـارد بارث» عن مجموعات «ياوْ»، أن مجيء الضيف إلى الدار مفخرةٌ لـربّ الدار؛ إذ يعتقدون أن نبتةً غيـر مرئية أمام الدار تجذِبُ الضيوف والبركة لأهل الدار[٢].

وينـدُرُ في الوقت الحالي أن يُجري باحثٌ دراسـةً ميدانيـة ويكتب عنهـا دون أن يقف بُرهَـةً من الزمن؛ للإشـادة بما حظي به من حفاوة وكرم ضيافة من لدن مجتمع دراسته.

فـي هذا الإطـار؛ يجمُلُ بنا رصـدُ بعض مظاهر الضيافـة على امتـداد شـعوب القارة. مثـلاً؛ تُعرَف بمجتمعـات نْغوني بجنوب إفريقيـا جماعة يُطلَق عليها «إسـيتيبي» Isithebe، وهـي ذات مهـامٍّ اجتماعيـة معقدة، تتلخص فـي قيامها بكل ما يحقـق الوئام بين أفراد المجتمع، ومن أهم مهامها الإشـراف على توزيع اللحوم والأغذية والخمور في مناسبات الزواج، والختان، ومناسـبات الاحتفـاء بالمصالحة بيـن المتخاصمين، وكذلك العناية بالضيوف الوافدين على المجموعة[٣].

أما بمجتمعات شـرق إفريقيـا؛ فيوجد نوعٌ خاصٌّ من الحِلف، يُطلَق عليـه أوتاني Utani، وصفه الباحث Anacleti بأنـه نظـامٌ اجتماعيٌّ لتسـهيل التنقُّل في المجتمع. ووصفه الباحـث Lloyd Swantz بأنه نوعٌ من جواز السـفر بيـن المجموعات الإثنيـة المختلفة، تُلـزِمُ كلَّ طرفٍ بتقديم طقوس الضيافة لكل ضيف، وقد شمل ذلك مجموعات Nyamwezi, Ndengereko, Digo, Ngoni, Zaramo، في كينيا الحديثة، ودعَت الحاجـة لذلك في ظروف أسـفار تلـك المجموعات بالمنطقة، وقطع مسـافاتٍ طويلة فـي التجارة، وحمل البضائع إلى شواطئ المحيط الهندي[٤].

هـذا، وتتميـز مجموعات غيكويو بشـرق إفريقيا بمفهوم الإنسـان الحبيس المسجون، والإنسان الطليق، فالحبيس محـدود السـمعة؛ لقلَّة إحسـانه، والطليق ugumo njega هـو الذي حُسِّـنُ أفعاله مُنتشـرٌ في البـلاد التي لـم تَطأها قدَمُه عبر الأشـخاص الغرباء الذين أحسـن إليهم[٥]. كما أن من الألقـاب التبجيلية عندهـا guthondeka rutwa، ومن لوازم هذا اللقب المبادرة إلى مواساة الآخرين، والعناية الفائقة بالضيف، ويقابله muhuuni or muroba، وهو البخيل الخامل الـذي لا يُرجى منه خيرٌ، ومن الصعـب أن يُمحى هذا اللقب السـلبي عن الشـخص إذا ما أُلصِقَ به[٦]. ومثل هذا اللقب التبجيلي للشـخص المضيـاف عند جيران غيكويـو مجموعات ليو Luo القاطنـة غربيَّ كينيا هو jangwono، ويقابلـه لقـب ja wooro، ويُنظَرُ إليه نظرة ريبة، ويُعدُّ من زمرة اللصوص، والقَتَلة، والسَّحرة[٧].

أما في وسـط إفريقيا وغربهـا، بمجتمع فانغْ في كونغو وغابون، فإن الكرم وحسـن الضيافة يُكسِب الفردَ السمعةَ الطيبة ولقب nsem y duma، ولا يتحقَّق ذلك إلا بالزواج. لذلك؛ فإن العزوبـة ممقوتة؛ لعجز العازب

.Kwame, 11

(١) Routledge, william S. and Katherine P. 1910. With a Prehistoric People, 1910. And: J.M Fisher, "The anatomy of Kikuyu domesticity and husbandry."

(٢) Roland Oliver (ed). 2005. Africa Since 1800, Cambridge Unv. Press, p.91.

(٣) David Chidester, et al. Ch. 1997. African Traditional Religion in South Africa, Green-wook, p.170.

(٤) Helena Jerman. 1997. Between Five Lines, Finnish Anthropological Society, p.146. and: Llyold Swantz, p.22.

(٥) Hannah, African Ethics, Op. Cit., p.99.

(٦) African Ethics Gikuyu Traditional Morality, p.66.

(٧) Julius Gathogo. 2008. Some Expressions of African Hospitality Today, Scriptura 99, 275-287, p.280.

عن الوفاء بمستلزمات الضيافة، واعتباره أنانياً[١]، وهنا تقع مسؤولية كبيرةٌ على المرأة في طقوس الضيافة[٢]. أيضاً؛ فإن سرد تواريخ الأجداد ndan ayong بين فانغْ يقوم بدَورٍ محوري في التزام الأفراد بالكرم وحسن الضيافة؛ حيث يُرجعون أصولهم إلى رجالٍ أمجادٍ، يزعمون تارةً أنهم آلهة أو أنصاف آلهة، ومن المحال الانتسابُ إلى أولئك دون القيام بأفعالٍ مجيدة في الكرم وحسن الضيافة[٣]. كما يعتقدون- مثل كثيرٍ من المجموعات الإثنية- أن أسلافهم قد يأتون في صورة غرباء؛ ليختبروا كرمهم والتزامهم بقِيَم المجموعة[٤].

في السياق نفسه؛ فإن مجتمعاتٍ إفريقية حديثة تشتهر بتعبيراتٍ في الاحتفاء بالضيوف، وهي متداولةٌ بشكلٍ واسعٍ بفضل الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، من ذلك كلمة Karibu، بلغة سواحيلي، وهي مقترضةٌ من «قريب» العربية، أي اقترِبْ، تفضَّلْ! وتقال في الاحتفاء بالضيف. ومنها Akwaba بلغة تُوي في غانا، و tendungal بلغة فولاني. وتشتهر جمهورية السنغال بأنها أرض الضيافة teraanga بلغة وُلوف، ويذهب كثيرٌ من الباحثين إلى أن من الصعب ترجمة هذه اللفظة بمجرد «حسن ضيافة»، إنها تعني أكثر من ذلك، وهي مفهومٌ مركزيٌّ في الهوية السنغالية[٥]. كما نجد في النشيد الوطني لجمهورية كوت ديفوار التنصيص في كلماته الأولى على أنها بلد الضيافة pays de l'hospitalite.

من هنا؛ يتجلَّى أن الكرم وحسن الضيافة من العناصر الثقافية الأكثر بروزاً في الواقع الإفريقي، والأقوى في مصارعة التقلبات والضغوط الخارجية والداخلية. هذا، على الرغم من طغيان النزعة المادية في المجتمعات الحديثة؛ حيث لا تزال توجد لدى المجموعات الإثنية والأفراد الكثير من مظاهر الكرم وحسن الضيافة.

باختصار؛ فإن الكرم وحسن الضيافة يمثِّلُ مُحدِّداً ثقافياً بارزاً في المجتمعات الإفريقية الحديثة، وهو امتدادٌ لتاريخ ثقافي طويلٍ تشكَّلت فيه رؤية الأفارقة نحو الكرم وحسن الضيافة في إطار المفهوم الإنساني الذي يُطلَق عليه «أُبونْتو». وقد استفاضت الشواهد التاريخية في الإشادة بكرم الضيافة لدى كثيرٍ من المجموعات الإثنية بإفريقيا. حتى في الفترة الاستثنائية من التلاقي غير الطبيعي بين إفريقيا وأوروبا (الغارة الاستعمارية)؛ فإن ما أجمعت عليه القوى الغازية لإفريقيا هو اعترافها بحسن ضيافة شعوبها، ويشهد لذلك واقعُ كثيرٍ من المجتمعات الإفريقية التي ما زالت تحتفظ ببعض مظاهرها الثقافية؛ حيث توجد بها معتقداتٌ وممارساتٌ راقيةٌ في حسن الضيافة، واعتبار الضيافة واجباً دينياً، وحقّاً اجتماعياً، على السواء.

الضيافة في السرديات الشعبية الإفريقية:

توجد في الموروث الشفهي الإفريقي نماذج كثيرة من الأساطير والقصص والحكايات والأشعار المتضمِّنة لقِيَم الكرم وحسن الضيافة، والكاشفة عن رؤى الشعوب الإفريقية حول الكرم والضيافة، بل أن تيمة الكرم وحسن الضيافة، ونبذ البخل والأنانية، تُشكِّلُ موضوعاً محورياً في الأدب الشعبي لدى بعض المجموعات الإثنية، كما الحال بمجتمعات شمالي مالي والنيجر[٦].

في الأساطير مثلاً؛ تُصادفنا مغبّةُ البخل على الغرباء في أسطورةٍ لدى مجموعات باكونغو في كونغو الديمقراطية، وهي عن امرأةٍ عجوز مجذومة وفدتْ على قرية؛ فأوصد الجميع أبوابهم في وجهها إلا الدار

(١) Bwiti an Ethnography of the Religious Imagination in Africa, p.177.

(٢) Ibid, p.105.

(٣) Ibid, p.105.

(٤) Gi Olikenyi. 2001. African Hospitality, p.105.

(٥) Eric Ross. 2008. Culture and Customs of Senegal, Bloomsbury Academic, p.95.

(٦) Susan J. Rasmussen, "Constructing Moral Personhood", in: Evil in Africa: Encounters with the Everyday, p.230.

الأخيـــرة، وعند مغادرتها، طلبت مـــن أهل الدار هجرة البلدة المشؤومة، وفي الليل، أرسل الإله Nzambi على القرية مطراً شديداً أغرقهم جميعاً.

ومثـــل هذه الأســـطورة موجودةٌ عنـــد مانْدينْغ في الرجل الذي ضيّف الإلهَ Ouende حين انتهَرَه الآخرون وهو مُتَقمِّصٌ صورةً بشرية؛ فأعطاه الإلهُ ثلاثة أنواع من الحبوب، تتكاثر بصورةٍ عجيبـــة، وانتقَمَ من أهل القرية بإهلاكهم بعاصفةٍ هوجاء، ومطرٍ شديد[١].

شبيهٌ بذلك؛ حكاية شعبية عند مجموعات سوكوما بكينيا للملك الطيّب، الذي أضاف رجلاً فقيراً هو وكلبُه بقصْـــرِه، وأصبـــح الرجلُ جزءاً من عيـــال الملك، وكان الكلبُ ســـبباً لخلاص الملك من موتٍ محقَّقٍ على أيدي أعدائه[٢].

كمـــا نجد حكايةً أخرى وبها رؤية نبذ الأنانية، وهي عن صداقة بين النســـر والسلحفاة، اســـتغلَّ النسرُ كرم السلحفاةُ؛ فكرَّر زياراته لها في بيتها، واستمتع بما توفِّرُه الســـلحفاةُ وأســـرتُها له من ضيافة؛ لكنَّه- بدَوْره- ظلَّ يُسَوِّف استضافته للســـلحفاة عنده في أعالي الأشجار، تنتهي القصّة بمؤامرةٍ بين الحيوانات ضدَّ النسر، تجعله يعـــضُّ أنامل الندم على أنانيته وســـوء اســـتغلاله لكرم السلحفاة.

أمـــا الأمثال الإفريقيـــة في مجال الكرم وحســـن الضيافة، فالموروث الشـــعبيُّ كريمٌ فـــي هذا الموضوع إلـــى أبْعَد الحدود! فالأمثال مســـتفيضةٌ في الإشـــادة بالكرم وحســـن الضيافة، وبيان كثيرٍ من الرؤى والأفكار، مـــن ذلك مثلاً: رؤيـــة التفاؤل بمجـــيء الضيوف، يقول المثَـــلُ الســـواحيليُّ: kupata mgeni ni baraka، أي: «الضيافة بركـــة»، أو «حضور الغريب بركة»[٣]. وفي المعنى نفســـه مثلٌ لدى مجموعـــات هايا ولويا Haya and Luyia، يقـــول: «دع الضيوف يأتـــون؛ يأتِ معهم الخيـــر»[٤]. ويذكر الأنثروبولوجي «جـــون مْبيتي» أن من أمثال نيامْويزي في تنزانيا قولهم: «الضيف دواء»، ويعني ذلك- فيما يعني- أن مجيء الضيف يُؤْذِنُ باختفاء صُوَر الخلاف بين أهل الدار، حيـــث يبشُّ الجميعُ في وجهه، ويُخفون عنه كلَّ خلافٍ، ويعود الوئامُ إلى البيت.

أيضـــاً؛ هناك طائفةٌ من الأمثال تحـــذِّرُ من البخل والأنانيـــة؛ بوصفهمـــا رذيلةً تمنع من إعطـــاء الضيافة حقَّها في الكرم والعناية. تقول مجموعةُ يوروبا: ai re alejoo se la nwi pe: ore ore-e mi de، أي: «من البخـــل أن تقول: ها قد جاء صديقُ صديقي!»، لأن هذا التعبير تَعِلَّة للتقصير في حقّ القادم[٥].

ومن هذه الطرافة في التعبير إلى شـــيءٍ من الشدة، تقول مجموعة غيكويو: muria wiki akuaga wiki، أي: «مَنْ يأكل وحده؛ يَمتْ وحده!»، فالأكل وحيداً يشـــير إلـــى ضعف علاقة الفرد بمحيطه الاجتماعي؛ لأن الأكل بوصفه متعةً يُفضَّل أن يشـــاطر فيه أصحابُه الآخرين، والموت بوصفه كذلك مؤلماً يخففه مشـــاطرة الآخرين، أو بتعبيـــرٍ آخر: مَن لا يشـــارك الآخرين في أفراحه؛ لا يشاركونه في أتْراحه.

مـــن جانبٍ آخر؛ تأتـــي أمثالٌ لتشـــجّع الفرد على المبادرة في القيـــام بواجب الضيافة والكرم، دون خوفٍ مـــن الفقر والإقتار، وفي هذا الســـياق تقول مجموعات شـــونا في زيمْبابوي: mweni haapedzi dura، أي: «الضيـــف لا يُفني خزينـــة الحبوب». وفـــي المثَل عند ســـوكوما قولهم: «فـــراش الضيف ســـريع التخلية، فهو يمكُثُ أياماً ويرحل»، وفي الســـياق نفسه تقول مانْدينْغ في مثَلٍ شِـــبه كاريكاتوري: «يومـــاً ترى الضيفَ ذا جبهةٍ

(١) Patricia Ann Lynch. 2004. African Mythology A to Z, Fact on File, p.45.

(٢) Hannah W. Kinoti. 2010. African Ethics, Amsterdam: Rodopi, p.170.

(٣) Frans Jozef Servaas W., 2007. Seeds of conflict in a Haven of Peace, Rodopi Publishers, p.208.

(٤) Hannah, African Ethics, Op. Cit., p.170.

(٥) Oyekan Owomoyela. 2005. Yoruba Proverbs. Univ of Nebraska, p.239.

عريضة، ويوماً تراه ذا قَفاً كبيرة، فالضيف راحلٌ وشيكاً، والتقصيرُ في حقِّه رذيلة».

هذا، وتُعدُّ مجموعات غيكويو من أكثَر المجموعات الإثنية الإفريقيـــة مبالغةً في الكرم وحســـن الضيافة، ويُشارُ بينهم إلى المبالغ في الكرم لضيوفه بـ uitangi، ومن أمثالهم: «يُعرَفُ قدرُ الزعيم بمقدار ناره (مَوْقده)»، وعندهـــم قصَّةٌ شـــعبية Muroki للملـــك الذي أفنى مواشـــيه وبَقَره في العطاء للضيوف والسائلين[١]، لذلك لا تُبالـــي غيكويو بما تُنفقُ على الضيف، فلولا المشـــقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهم.

عادات وتقاليد في الضيافة:

نتيجةً لما ســـبقت الإشـــارة إليه، من ثقافة واسعة وعميقـــةٍ للكـــرم والضيافـــة بالمجتمعـــات الإفريقية التقليدية، فإن عاداتٍ وتقاليد، وإجراءاتٍ وطقوساً كثيرةً، قد نشأت لدى أولئك لاحتواء الرؤى والمفاهيم المتراكمة لديهم حول الكرم والضيافة، وترجمتها إلى أفعالٍ ماثلة، ســـواءً في ذلك الطقوس على مستوى جمعي، والطقوس على مستوى فردي.

مثلاً؛ يوجـــد في المجتمعـــات الزراعيـــة نوعٌ من «الوقف الشعبي»، يتمثل في توفير احتياطاتٍ من الغذاء والمحاصيل الزراعية تشـــارك في توفيرها كل أسرة، أو يوجـــد ما يُطلق عليه «مزرعة عمومية»، يُطلَق عليها عند مجموعـــات مانْدينْـــغ Foroba-Foro، وعلى الخزينة التي تُحفـــظ بهـــا المحاصيل الجماعيـــة Foroba-bulon. وهـــو نوعٌ مـــن الإنتاج الجماعي لـــكل قريةٍ أو مجموعةٍ عشـــيرية، وتتمُّ الاســـتفادة من محاصيل تلك المزرعة في المناســـبات العامَّة بالقرية، مثل الوفيات، والعناية بالضيـــوف، والإنفاق على المحتاجين، والأعياد وغيرها[٢]، وتقـــع مهمة العمل في هـــذه المزرعة على الجميع، خاصَّةً فئات الشباب Kamalen Ton الذين ينتظمون في مجموعاتٍ عمرية محدَّدة، ويكون العمل في المزرعة العمومية في أيَّام معلومة[٣]. ويُعرَف هذا النظام في زيمبابـــوي بـــ zunderamambo، وهي مزرعة المملكة التي تحفظ محاصيلها لفترات الحاجة[٤].

بالمثل؛ يوجد لـــدى المجموعات الرعوية ما يُعرف بـ«الحظيـــرة العمومية»، أي: الرؤوس الحيوانية الخاصَّة بالبلدة أو المجموعة العشـــيرية، تُنفـــق على الضيوف الوافدة على القرية. وفي مجتمع شاغا Shagga- مثلاً- تُسمَّن بعض الدواجن والأنعام وتُحبَسُ من أجل الضيوف.

بالإضافـــة إلى ذلـــك؛ يوجد تقليدٌ آخـــر متَّبَعٌ في كل قريـــةٍ- أو حتى في المـــدن الحديثة، وهو تخصيص صاحـــبِ كل دارٍ غرفةً أو أكثر من أجـــل الضيفان، فلا تُســـكن، وإن اســـتُخدمت لأيِّ حاجةٍ فإنهـــا تظل مؤقتةً قابلـــةً للتخلية الفورية إذا ما وفد ضيـــفٌ، ويُطلق على هذه الغرفة عند مانْدينْغ lonan-jigi bong، أي: بيت إنزال الضيـــوف. وعند مجموعة Laimbwe بكاميرون تُســـمَّى beitonghekeh، وهي مجموعةٌ ســـكنية من الأكـــواخ مخصَّصة للغرباء، يحصلـــون فيها على المأكل والمشرب، وعلى الأمان، إذا ما وفدوا ضيوفاً أو لاجئين من خوف مجموعاتٍ أخرى[٥].

المأكل والمشرب:

تختلف تقاليد وطقوس المأكل والمشـــرب المقدَّم للضيف، بين مجموعة إثنية وأخرى؛ تبعاً للمزاج الغذائي فـــي كل ثقافة، غير أن كل مجموعـــةٍ تُخصِّص للضيف أفضل ما لديها من الأغذية. مثلاً: في مجتمعات هايا في تنزانيا، وباغَنْدا في يوغنـــدا، تُقدَّمُ للضيف حبَّات قهوة يمضغُها ثم يلفظها دلالةً على الحفاوة والترحيب به؛ ذلك لمكانة القهوة بمجتمعات شـــرق إفريقيا ومركزيتها في

(١) Hannah W. Kinoti. Op. Cit., p.112.

(٢) Joseph K. Ajayi, 85.

(٣) Theodore Celenko, Harrison Eiteljorg. 1983. A Treasury of African Art from the Harrison Eiteljorg Collection, 36

(٤) Mugumbate, "Exploring African Philosophy", Op. Cit., 95,

(٥) Adebayo, G. et al. 2014. “Indigenous Conflict Management Strategies in West Africa", Faculty Bookshelf , 15.

حياتهم. أما مجموعات غيكويو، فإنها تحتفي بالضيف بنوعٍ خاصٍّ من الطعام يُدعى ningukiruga[١].

ومن التقاليد في معظم الإثنيات: أن الضيف لا يُسألُ عن أخباره، أو عن هويَّته إذا كان غريباً، قبل تقديم الطعام له، وإلى ذلك تشير غيكويو بقولها: ng›aragu ndihooyagwo uhoro: «لا تسأل جائعاً رواية قصَّة»[٢].

هذا، وفي المجتمعات التي يكون التنقُّل فيها مشياً على الأقدام؛ فإن من اللَّوازم مرافقة الضيف عند عودته حتى منتصف الطريق بين القرية والقرية المقابلة، وربما أُرسِلَ معه من الغلمان مَن يحملون له متاعَهُ. وفي بعض حالات المرأة الضيفة؛ فإنها تُعطى بعض الأشياء مثل البهارات، والبطاطا الحُلو، والدجاج، وغيرها[٣].

العناية المعنوية:

بالإضافة إلى ما سبق؛ فإن حسن الضيافة لا يتوقف على توفير المسكن والمأكل وجبر الخاطر للضيف فحسب، وإنما يتعدَّى ذلك إلى توفير الأمن النفسي الكامل له، وتتعدى بعضُ المجموعات في ذلك إلى إبرام حِلْف طقوسي مع الضيف، يُعدُّ بموجبه مرتبطاً بعلاقة دم بمُضيفه وبعشيرته، من ذلك مثلاً: حلف «لوبا باسا» Luba-basa، عند مجموعة أُرومو الرعوية. كما يجوز للضيف ما لا يجوز لغيره، فلا يُؤاخذ بشيءٍ من العادات والمحظورات القَبَلية، ولا تُردُّ وساطَتُهُ في المصالحات والمنازعات والشفاعات. نجد تعبيراً عن تلك العادات في بعض الأمثال الشعبية، ففي المَثَل عند إيبو قولهم: obiara ije amaghi ebe al ruru، أي: «الضيف معذور». ومثله عند مانْدينْغ قولهم: lona nya kabo, nga a te yeli ke، أي: «للضيف عيونٌ كبيرة؛ لكنَّه أعمى».

وإذا صادَفَ قُدومُ ضيف ولادةَ طفلٍ في القرية، أو عند مُضيفه، فإن اسمه يُطلَق على المولود؛ تكريماً له، واعتقاداً أنه قد جلب الخير. وهناك أسماءٌ جاهزةٌ تُطلَق على المولود الذي تُصادفُ ولادتُهُ وجودَ ضيف، فيُطلق مثلاً عند مجموعات نانْدي Nandi على المولود الذَّكر kiptoo، وعلى الأنثى cheptoo، وعند إثنية كامْبا mueni، وغيكويو mugeni، ولِيو wendo[٤].

الخلاصة هنا: أن عاداتٍ كثيرةً قد نشأت وتطورت في المجتمعات الإفريقية حول ثقافة الضيافة، تتراوح بين العناية الجماعية بالضيف، وبين العناية الفردية به؛ حيث تُخصَّص محاصيل زراعية ورؤوس حيوانية، ومنازل للضيوف، ويُخصُّ الضيف بأطيب ما لدى كل مجموعة من أصناف الأطعمة، ويُشمَل بالكثير من صُوَر العناية المعنوية والنفسية، كإطلاق اسمه على المولود الذي يولدُ بحضرته، أو تخصيص أسماء جاهزة لهذا الغرض، وغير ذلك من صُوَر الاحتفاء بالضيف، وإشعاره بقمَّة الاحترام.

الضيافة عند مجموعات غيكويو:

غيكويو Gikuyu/Kikuyu هي المجموعة الإثنية القاطنة بالمناطق السهلية لجبال كينيا، وتُمثِّل أغلبية إثنية بجمهورية كينيا الحديثة (٢٠٪)، وهي جماعة رعوية في الغالب[٥]. تتميز غيكويو في مجال الضيافة والكرم بعُمق هذه القيمة؛ حيث تقومُ غيكويو على خمس قيَم أساسية، هي: الأمانة Wīhokeku، والكرم ũtaana، والعدل kīhooto، والشجاعة ũcamba، وضبط النفس wīkindira[٦]. فهذه الركائز الخمس هي التي تستحوذُ على جميع مظاهر الحياة لدى غيكويو.

أما حُسن الضيافة تحديداً؛ فإنها ركيزةٌ مؤصَّلةٌ في

(١) Hannah W. Kinoti. Op. Cit., p.103.

(٢) Hannah W. Kinoti. Op. Cit., p.105.

(٣) Anthropos, Vol. 90 (1-3), p.117.

(٤) Emily, Jeptepkeny. 2020. An Ethic of Hospitality, Pickwick, p.39.

(٥) Mamie Stokes (ed). 2000. Encyclopedia of the People of Africa and the Middle East, Facts on File, p.372.

(٦) Kinoti, Hannah W. 1983. Aspects of Gikuyu Traditional Morality, (Ph.D), Dep. Of Arts, Univ. of Nairobi.

ثقافة غيكويو، فكراً وممارسةً. ولعل الباحث Cagnolo لم يبالغ في قوله: «إن غيكويو يعبدون الضيافة»[١] The Gikuyu make a fetish of hospitality، وقد نتج عن ذلك نشوء فنٍّ دقيقٍ في الضيافة utugi بين غيكويو، بإجراءاتٍ وطقوسٍ محدَّدة لا يتقنها إلا الضالعون في ثقافة هذا الشعب.

توضيحاً لذلك؛ فإن الضيافة- عند غيكويو- لا تكتمل إلا بثلاث ركائز: kuheeana، وهي المبادرة إلى الحفاوة بالضيف وخدمته، وترك أيّ شُغلٍ آخر، و kugagura، وهو تقديم أطيَب المأكل والمشرب للضيف مهما كلف ذلك، و mituki، وتتمثل في المبادرة وسرعة البديهة في معرفة حاجات الضيف التي قد يمنعه الحياء عن المطالبة بها.

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن لدى غيكويو مصطلحات وتعبيراتٍ دقيقةً في الضيافة يصعُبُ ترجمتها بدقّةٍ إلى لغةٍ أخرى، منها: kunyiita ugeni، وهي طقوس الاحتفاء بالضيف والبشُّ في وجهه، ومنها mituki، وهي المبادرة والسرعة في خدمة الضيف، و miario miega، وهي طرق محادثة الضيف ومؤانسته بألفاظ جاهزة، ومنها itega، وهي طُرق تقديم القِرَى للضيف مع إشعاره بالاحترام البالغ[٢]. ومن أمثال غيكويو قولهم: utaana ni mituki، أي: «الكرم المبادرة»، فالكريم يتمايز عن البخيل بمبادرته إلى القيام بواجب الكرم، أما البخيل فإنه يقوم به بعد مسألةٍ أو إلحاحٍ من ذي الحاجة المضطر.

الضيافة عند إثنية إيبو:

إيبو Igbo هي المجموعات الإثنية القاطنة في الجنوب الشرقي من نيجيريا، وهي زراعية بحُكم استيطانها بالمنطقة الغابية الممتدة من دلتا نهر النيجر[٣]. والضيافة في منظور إيبو- مثل سائر الإثنيات الإفريقية- واجبٌ روحيٌّ، وحقٌّ اجتماعيٌّ؛ حيث يعتقدون أن الآلهة أو أرواح الأسلاف قد تظهر للبشر مُتقَمِّصةً صُوَر ضيوف، وذلك لاختبار مدى التزام الناس بالقِيَم والتقاليد، وبقدر عناية الناس بأولئك الضيوف يكون رضا الآلهة عنهم، ويكون جزاؤهُم في شكل حصادٍ جيد، أو وفرةٍ في المواشي، أو غير ذلك. وبالعكس؛ فإن نقمة تلك الأرواح إذا لم يعتنِ بهم الناس تكون شديدة[٤].

بناءً على هذا الاعتقاد؛ فإن الضيف بمجتمع إيبو يحظى بعنايةٍ بالغة، وأول واجبٍ تجاه الضيف هو تقديم ماء الشرب له، وجوزة غُورو oji (كولا)، وهي ثمرةٌ ذات اعتبارٍ ثقافي كبير في مجتمعات غرب إفريقيا على الرغم من طعمها المُرّ[٥].

وإيبو مثل إثنية غيكويو في الإنفاق على الضيف؛ إذ لا تبالي بكثرة ما يُقدَّم في الضيافة؛ ما دام الضيف يشعر بالرضا والأمان، ولديهم مَثَلٌ يُعبِّر عن هذه الرؤية، يقول المثل: onye nwere madu ka onye nwere ego، أي: «امتلاك البشر أفضَلُ من امتلاك الأموال»[٦]، والطريق إلى امتلاك الإنسان هو الإحسان إليه كما يأتي ذلك وشيكاً في المثَل عند مانْدينْغ.

ولدى إيبو أعرافٌ كثيرةٌ مرتبطةٌ بالضيافة، منها مثلاً: أن الضيف إذا حلَّ بشخص وليس لديه في العاجل ما يَقْرِي به الضيف، كذبح دجاج أو تقديم طعام، فإن من واجبه أن يبادر بسؤال جاره، وفي حال غياب الجار؛ فإن للمضيف أن يتصرَّفَ في ممتلكات جاره بلا حرج.

هذا، وللشَّخص الكريم المضياف اعتبارٌ خاصٌّ

(١) C. Cagnolo, The Akikuyu: their customs, traditions and folklore, in: Hannah, African Ethics, Op. Cit., 100.

(٢) Hannah, African Ethics, Op. Cit., p.108.

(٣) Encyclopedia of the People, Op. Cit., p.301.

(٤) Chinedu P. Ezen. 2020. The Value of Human Dignity, Logos Verlag Berlin, p.61.

(٥) Milner, J. 2009, Refugees, The State and the Politics of Asylum in Africa, Plagrave McMillan, p.22.

(٦) Edwin A. Udoye. 2011. Resolving the Prevailing Conflicts, LIT Berlag, p.59.

في مجتمع إيبو يشـمل ذويه وآل بيتـه. بالمقابل؛ فإن البخيـل المُقصِّر في حقِّ الضيافـة ممقوت، ولدى إيبو أوصـافٌ وتعبيراتٌ اصطلاحية جاهـزةٌ للتَّبرُّم من مثل هذا الشـخص، منهـا Oribe enyeghi mmadu, Onye aka chichi، ومن شأنها أن تزيل عن الشخص اعتبارات اجتماعية كثيرة، وأن تُلحِق به العار وبذويه[١].

الضيافة عند إثنية ماندينغ:

تُطلَـق مانْدينْـغ Mande/Manding، علـى شريحة واسـعة من المجموعات الإثنية بغربي إفريقيا، منها: بَمْبـارا، وديولا، وماليـنكي، وسـونِنْكي، وصُوصُو، وتتركَّز في دول: غامبيـا، ومالي، وغينيا، وكوت ديفوار، وبوركينا. وهي زراعية تجارية، وكان على يدها تأسـيس إمبراطوريتَي غانة ومالي القديمتَين[٢].

تشـترك مانْدينْغ مع مثيلاتها من الشعوب البَانتُويّة بعُمق ثقافـة الضيافة فيها، وتزيـد بتأثير تلك الثقافة بالموروث الإسـلامي؛ ذلـك لطول احتـكاك مانْدينْغ بالإسـلام لفترة تربو على ألف عام. ويظهر هذا العُمق- أوّلَ مـا يظهر- فـي لفظـة ja-tigi، أي: «مُضيف»، ومدلولها، فهي تعنـي حرفياً: «مالـك الخاطر»؛ حيث الجـزء الأوّل من الكلمة يعنـي: روح، أو خاطر، والآخر يعنـي: صاحب، أو مالك، فمدلُول هذه اللفظة هو: الذي يَجْبُر الخاطر، ويُحقِّق الأمان[٣].

عليه؛ فإن الضيافة عند مانْدينْغ مسـؤولية ومزيّة، فمن الفخـر أن يصبح الفرد مضيفـاً، فالطيور لا تقع إلا على السـنابل الممتلئة كما يقول مانْدينْغ. والمُضيفُ مسؤولٌ عن ضيفه قلباً وقالباً، روحاً وجسداً، لذلك يتردَّد عند الشعراء «جالي» (القوَّالين) بين مانْدينْغ قولهم: «إن الكرماء كُثُر؛ لكنَّ جاتيغي قِلَّة»، أي الذي يُعطي ويُحسـن العطـاء. وتلك رؤيةٌ واضحةٌ في فـنِّ الضيافة عندهم، يُشار إليها بالمصدر «ja-tigi-ya»[٤].

هذا، وقد قامت الضيافة منـذ القِدَم بعقد الكثير من الأحلاف بين عشـائر مانْدينْغ، فهي عملية لا تتحدَّدُ بالفتـرة التي يقضيها الضيف عنـد مُضيفه ثم يرحل، وإنما تمتدُّ عبر الزمن لتتمخَّض عن علاقات اجتماعية، وروابط أخوية مسـتدامة، تشـمل ذوي قرابة الضيف والمضيـف جميعـاً؛ لذلك لا نزال نـرى مفعول الكثير من تلك العلاقـات الضاربة في القِدَم فاعلاً ومؤثِّراً في الأحلاف بين عشـائر مانْدينْغ المعاصرة؛ محقِّقاً للوئام والتناغم فـي المجتمع، فمن المحـال مثلاً أن يرفض فردٌ وساطة فردٍ من عشـيرة أخرى هي حليفته بعلاقة «ضيف-مُضيـف» مُبرَمة بين الأجداد، ولـدى مانْدينْغ مَثَـلٌ يؤكد هذا الاعتبار؛ إذ يقولون: mògòladon bè mògò kè mògò ta ye.، أي: «بِحُسْـن العناية؛ يغدُو الإنسـانُ مِلْكاً للإنسـان»، أو بتعبير المتنبي: «إذا أنتَ أكرمتَ الكريم مَلَكتَهُ».

أما التأثير الإسلامي في رؤية مانْدينْغ لقيمة الكرم والضيافة؛ فمن مظاهره تحوير مانْدينْغ بعض المأثورات الإسـلامية لتخصيب رؤيتها في الضيافـة[٥]، من ذلك مثلاً: زعْمُهم أن صحابة النبي (صلى الله عليه وسـلم) اختلفـوا في العلم والمال: أيهما أكبَرُ قدراً عند الناس؟، فـأراد النبي (صلى الله عليه وسـلم) أن يُعلِّمهم، وكانوا في طريقهم إلى دار الهجرة، وعندما شـارفوا المدينة؛ لبِسَ النبيُّ (صلى الله عليه وسـلم) ثوباً خَلِقاً أسْـمال، وطلب من أصحابه أن يلبسـوا أجمل ثيابهم، وحين بلغوا المدينـة؛ هُرِع النـاسُ نحو صحابتـه يعرضون عليهم ضيافتَهم، وبينما النبيُّ (صلى الله عليه وسـلم) مُنْعزِلٌ بلا عَرْضٍ اقترَب منه رجلٌ أعمى فقيرٌ، هو «بالنْصاري»

---

(١) Ibid.

(٢) Encyclopedia of the People, Op. Cit., p, 443.

(٣) Barbara G. Hoffman. 2011. Griots at War: Conflict, Conciliation, and Caste in Mande, Indiana Unv. Press, p54.

(٤) Ryan T. Skinner. 2020. the Hospitality of a Mentor, Mande Studies, Vol 22. P.205-209.

(٥) Barbara E. Frank, David C. Conrad. 1995. Status and Identity in West Africa, Indiana Unv. Press, p.97-98.

(تحريف لاسم أبي أيوب الأنصاري)، ودعاه إلى بيته، ولم يكن معه من الطعام ما يكفي اثنين، فأطعم النبيَّ (صلى الله عليه وسلم)، وبات طاوياً مع زوجته، وقد كافأ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) بالنَّصاري على معروفه بأن دعا اللهَ له؛ فردَّ إليه بصره، ودعا له ثانيَةً؛ فظلَّ حياتَهُ كلَّما مدَّ يده داخل خزينة حبوبه أخذَ منها ما اشتهى من الذُّرة أو الأرزِّ أو القمح أو غيرها[1]. فههنا تحويرٌ طريفٌ لعدَّة وقائع حقيقية في السيرة النبوية، مع تطعيمها بعناصر محلية، خاصَّةً أسطورة Ouende- السَّالفة الذِّكر في فقرة السَّرديات الشعبية.

هذا، ولا يزالُ مفعول هذا الزَّعم سارياً في رفع عشائر فوسَانا نَسَبَهَا إلى «بالنَّصاري»، وإطلاق لقب Kela-jatigiw، أي: «مضيفو النبي (صلى الله عليه وسلم) على أنفسهم»، وهو لقبٌ ذو مخزونٍ ديني كبير؛ يكسبهم مكانةً واعتباراً اجتماعياً فريداً بين عشائر مانْدينْغ.

يمكن الخلوص هنا إلى القول: إن مجتمعات إفريقيا التي تخيَّرنا منها ثلاثة نماذج في مناطق متباعدة بإفريقيا: غيكويو، ويوروبا/إيبو، ومانْدينْغ، مجتمعاتٌ قد تركَّزت فيها ثقافة الكرم وحُسن الضيافة وتجذَّرت، وارتبطت بالحسِّ الديني والروحي؛ حيث تعتقد تلك المجتمعات ومثيلاتها: أن تقديم الضيافة على أحسن وجوهها إنما هو عنصرٌ ضروريٌّ لتحقيق إنسانية الإنسان ومروءته، كما أنه إرضاءٌ للآلهة والأسلاف، وأن القصورَ في هذا الواجب يجلب سخط الأسلاف ونقمة الآلهة. وبناءً على ذلك؛ فإن طقوساً دقيقة، وإجراءات معقدةً قد تبلورت حول الضيافة في كل مجتمع إفريقي، وتزيد المجموعات الأكثر تأثُّراً بالإسلام أو بغيره من الأديان الكبرى، باقتراض رموز تلك الأديان إلى ثقافتها المحلية؛ من أجل تخصيب رؤاها ومفهوماتها حول الكرم والضيافة، وتلك حال مجموعات مانْدينْغ.

موقع ثقافة الضيافة في الحاضر الإفريقي:

انطلاقاً من كل ما سبق، عن تجذُّر ثقافة الكرم وحسن الضيافة في المجتمعات الإفريقية، فإن الذي يُقلقُ المتأمِّلَ في واقع المجتمعات الإفريقية هو التحوُّل المتسارع الحاصل في هذه الثقافة، وذلك بتأثير عوامل كثيرة: من عولمة، وطغيان نزعة الحياة المادية، وأخلاق المدينة، والتأثيرات الجذرية في رؤية العالَم الإفريقية، فما جدوى ثقافة الكرم والتشارُك وحسن الضيافة، والاستعداد للعطاء غير المشروط، وغير ذلك من القيَم التي فعلت فِعْلَها يوماً ما في تضامُن المجتمع الإفريقي وتناغُم شعوب القارة؟!.

في هذا الإطار؛ يتخذ بعض الباحثين موقفاً رافضاً لقيمة الكرم وحُسن الضيافة؛ حيث يرَون أن حقائق الحاضر قد تجاوزت تلك القيَم وطقوسها، فالباحث كيبرابٌ يصف الضيافة بأنها قد أصبحت «قطعة أثرية» a museum piece في متحف التاريخ[2]. عليه؛ فإن مشكلات اللجوء بإفريقيا، وغيرها من مشكلات القارة، ينبغي أن تُعالَج- في رأي أولئك- بأساليب وأدوات جديدة، وهنا يركِّزون على بُعد المسافة بين الشخصية الإفريقية الأصيلة والشخصية المعاصرة.

هذا، ومما يحتجُّ به الرافضون: واقعُ المجتمعات الإفريقية- الحضرية خاصَّةً، إذ هي بعيدةٌ عن قِيَم الضيافة، فالإفريقي مضطهدٌ منبوذٌ في الدولة القُطرية المجاورة له في معظم الأحيان، وقد تؤدِّي خلافاتٌ فردية عابرةٌ بين فردَين، أحدُهما مُواطنٌ وآخر ينتمي إلى دولة إفريقية أخرى، إلى استنفار جماعي، يُستولَى فيه على ممتلكات المهاجرين الأبرياء، وتُخرَّبُ بيوتُهم، ويُقتلون أحياناً.

بالإضافة إلى ذلك؛ يرى أولئك أن كرم الضيافة قد كلَّفت القارة في الماضي الكثير من حريّتها، وخيراتها،

(١) Conrad, David. Islam in the Oral Traditons of Mali, J. of African History 26(1), 1985, 33-49.

(٢) Gaim Kibreab. 1983. Reflections on the African Refugee Problems, Scandinavian Institute, p.82.

وملايين أبنائها في شكل تجارة الرقيق؛ إذ استغلت القوى الإمبريالية طيبة الأفارقة للاستيلاء عليهم.

على نقيض الفريق الرافض؛ يرى فريقٌ يمثِّل الأكثرية: أن حُسن الضيافة، وغيره من القِيَم الإنسانية النبيلة، لا غنًى عنها في أيّ عصرٍ من العصور، وتحت أيّ ظرفٍ من الظروف، ويزيدون: إن الإشكال ليس في تلك القيَم التي توصَفُ بأنها قديمة، وإنما في طُرق توظيفنا لها. إن هذه قِيَمٌ اجتماعية ثقافية وضعها- ويطبقها- بشرٌ لا ملائكة، لذلك ليس مستغرباً أن تكتنفها بعض أوجُه القصور، وأن توظفها بعض النفوس الضعيفة توظيفاً نفعياً أنانياً، ومهمّة الإنسان المعاصر هي حُسن توجيه تلك القِيَم، وتوظيفها توظيفاً مناسباً لظروفه، وواقع الحياة وحقائقها[١].

هذا، ومما يستشهد به هذا الفريق المؤيد لإعادة الاعتبار لقِيَم الضيافة بإفريقيا الحديثة: أنها قد اضطلعت بمهمَّة كبيرةٍ في حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، حين تأجَّجت نيران حركات التحرُّر الشعبية من ربقة الاستعمار، وفي تلك الظروف عاد الوعيُ التضامني بقوة، وظهر فكر البان أفريكانيزم؛ فبادرَت المجموعات في الدول الإفريقية الفتية إلى مساندة تلك الحركات، وإلى فتح كثيرٍ من الدول الإفريقية حدودها للاجئين النازحين، والفارين من القوى الاستعمارية الغاشمة، حاملين في ذلك أعباءً اقتصادية واجتماعية وسياسية كثيرة، وتوَّج الاتحاد الإفريقي African Union، عام ١٩٦٩م، هذه المبادرة الشعبية والوطنية بتوقيع معاهدة بين دول الاتحاد OAU Refugee Convention، تُوجب توفير الضيافة والحماية لكل لاجئٍ بإفريقيا، وقد أطلق بعض الباحثين على تلك الفترة: العصر الذهبي للُّجوء بإفريقيا The Golden age of asylum[٢].

أما ما يُلوِّح به الرافضون من طغيانٍ لنزعة الأنانية ومواقف العنصرية من لدن الأفارقة بعضهم نحو بعض؛ فإن المؤيدين يرون أن قيمة الضيافة، وغيرها من قِيَم الأُخوَّة وحُبّ الخير، ما جاءت إلا للحدِّ من تلك الآفات. إن حُسن الضيافة- مثلاً- لا يعني بسط الخير للأباعد فحسب، وإنما هو عملية تبدأ من المحيط الضيّق من الأقارب والجيران قبل الأباعد، ولا يمكنُ أن يكون الأفرادُ ذوي تقبُّلٍ للغرباء وحفاوةٍ بهم؛ وهم فيما بين أنفسهم بعضهم رافضون بعضاً، شحيحون على أنفسهم. إن حُسن الضيافة ما هو إلا امتدادٌ للوئام والتناغم المحلي في المجتمع، وتلك معادلةٌ شحيحةُ الوجود في كثيرٍ من المجتمعات الإفريقية الحديثة المتمزقة بين المشارب السياسية.

أخيراً:

مهما يكن من موقفٍ حيال الضيافة في إفريقيا؛ فإن الدراسات في هذا الموضوع ينبغي أن تُكثَّف، وأن تتركَّز في المجال الثقافي الاجتماعي للضيافة، وهو المجال المعني بالسياقات الاجتماعية التي تتمُّ فيها إجراءاتٌ معيَّنة من طقوس الضيافة، وهو ما حاولت هذه الورقة في ضوئه النظر في الضيافة بإفريقيا. وإلى جانب هذا المجال يوجد المجال الشخصي، وتُعنى الدراسات في هذا الجانب برصد الحاجات النفسية والجسدية للضيف والمُضيف على السواء. والجانب الثالث الأخير لدراسات الضيافة هو المجال التجاري الاقتصادي، والعناية فيه بالعوائد المادية التي يجنيها المُضيف في النشاط الضيافي، وهذا المجال الأخير هو الذي يستحوذ على الاهتمام البحثي والرسمي، حتى إنه إذا ما أُطلقت الضيافة تبادَرَ إلى الذهن مفهومها التجاري، ولا شك أن هذا الجانب لا يمكن أن ينجح دون ربطه بالمجالَين الآخرَين، وبخاصَّةٍ المجال الثقافي الاجتماعي[٣] ■

(١) Gyekye. 1997. Talking about Hospitality, p.91.

(٢) Toyin Falola, Olajumoke Y.H. 2023. African Refugees, Indiana Univ. Press, p.257.

(٣) Ioannis, S. Pantelidis. 2014. The Routledge Handbook of Hospitality Management, p.2.